



كيم ستانلي روبنسون

بعد أن غرقت قنيسيا



ترجمة: وسام محمد عبده

مكتبة فريق_متميزون.

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمة مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي. وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

[انضم إلى الجروب](#)

[انضم إلى القناة](#)

بعد أن غرقت □ ينيسيا

رواية مترجمة..

كيم ستانلي روبنسون

ترجمة: وسام محمد عبده

بعد أن غرقت فينيسيا (1)

في الوقت الذي كان «كارلو تافور» ينازع من أجل الاستيقاظ، كان الطفل يبكي، وإناء الشاي يُصفر، ورائحة دخان الموقد تملأ الهواء. ضربت الأمواج جدران الطابق السفلي. بزغ الفجر، نزع نفسه كرهًا من تحت أغطية الفراش وقام. مرَّ عبر الغرفة الأخرى للمنزل، متجاهلاً زوجته والطفل، ومضى خارج الباب إلى السطح.

راح «كارلو» يفكر وهو يتبول في القناة: «فينيسيا» الأجل عند الفجر. في ضوء الفجر البنفسجي الباهت، من الممكن أن تتخيل أن المدينة لا تزال كما كانت دائمًا، وأن جحافل الزوار سوف تفيض بهم «جراند كنال» في هذا الصباح الصيفي الجميل.. بالطبع، كان على المرء أن يتجاهل تلك المنشآت الرديئة التي بُنيت على أسطح أبنية الحي؛ ليكون بمقدوره أن يستمتع بعظمة المدينة. كانت جميع الأبنية حول كنيسة «سان جياكومو دي رياتو» قد غمرتها المياه حتى الطوابق الأخيرة، ولذلك كان من اللازم تفكيك الطوابق الأرضية، وإنشاء الأكواخ على عوارض الأسقف وصنْعها من المواد التي جُلبت من الأسفل: الخشب، وقوالب القرميد، والحجارة، والمعادن، والزجاج.

كان منزل «كارلو» واحدًا من تلك الأكواخ؛ بُني من خليط مُشوّه من الأعمدة الخشبية، والزجاج الملون المجلوب من «سان جياكومو»، وأنابيب صرف طرقت لتُصبح مسطحة. نظر خلفه وتتهَدَّد، كان من الأفضل أن ينظر بعيدًا عن كنيسة «دي رياتو»؛ حيث تنوهج الشمس الحمراء فوق قباب «سان ماركو».

سمع صوت زوجته «لويزا» من الداخل:

- يجب أن تقابل هذين اليابانيين اليوم.

أجاب:

- أعرف.

لا يزال الزوار يأتون إلى «فينيسيا»، هذا أكيد.

- ولا تهينهما وتتصرف من دون أجرك.

ثم مضت إلى الداخل بينما صوتها يبلغه واضحًا، وهي تردف:

- كما فعلت مع هؤلاء الهنجاريين. حقًا، لا يهم ما يأخذانه من تحت الماء.. إنها ماضٍ. بأيِّ حال لم تُعد هذه الأشياء تُقدِّم أيَّ خيرٍ لأيِّ أحد وهي قابعة تحت الماء.

قال بضجر:

- اخرسي.. أعرف.

- لا بد أن نشترى حطبًا للموقد، وخضراوات، وورقًا للحمام، وجوارب للطفل. اليابانيون أفضل العملاء الذين تعمل معهم، من الأحسن أن تعاملهم جيدًا.

عاد «كارلو» إلى داخل الكوخ، ودخل غرفة النوم ليرتدي ملابسه. وضع قدميه في الحذاء، ثم توقف ليدخن لفافة التبغ الأخيرة في المنزل. وبينما يدخن راح يتطلع إلى كومة كتبه الخاصة فوق الأرض؛ «مكتبته» كما يحلو لـ«لويزا» أن تتهكم على مجموعة كتبه. كلها كُتِبَ حول «فينيسيا». كانت كتبًا رثة، وملتوية الأطراف مثل أذن الكلب، ومتهدلة بسبب الرطوبة، ولا يمكن أن يُغلق أيٌّ منها بصورة صحيحة، وكل صفحة فيها مجعدة كصفحة بحيرة متموجة في يوم عاصف. كانت أشكالها بائسة، فركل «كارلو» الكومة الأقرب ركلة خفيفة بحذائه البارد وهو يغادر الغرفة. - لقد انتهيت.

قَبْلَ زوجته والطفل، وقال:

- سوف أعود متأخرًا، فهما يريدان الذهاب إلى «تور تشيللو».

- ماذا يريدان من هناك؟

هز كتفيه، وقال:

- ربما يرغبان في رؤيتها.

ووارى الباب خلفه.

تحت السقف، كان هناك ميدان صغير، حيث كانت مراكب الحي ترسو. وثب «كارلو» من فوق الأرضية إلى مرسى عائم ضيق كان قد بناه وجيرانه، ثم وثب إلى قاربه الشراعي الطويل. فك مرسة القارب، وجدف نحو «جراند كنال». بمجرد أن دخل إلى «جراند كنال»، سحب المجاديف من الماء، وترك القارب ينحرف مع التيار. كانت القناة الكبيرة دائمةً بمثابة الطريق الرئيس للإبحار خلال أحوال البحيرة، لفترة من الوقت رُوِّضت القناة، ولكنها الآن عادت كالنهر ثانية؛ ضفافها من أسطح الأبنية والقصور الحجرية، وتندفق إليها مئات الروافد.

الرجال الذين يعملون مبكرًا فوق أسقف المنازل في ضوء النهار، والذين يعرفون «كارلو»، لوَحُوا له بأيديهم التي تحمل المطارق والحبال، وهنقوا مرحبين. هز «كارلو» مجدافًا بلا مبالاة، قبل أن يسحبه أخيرًا. كم هي حماقة أن يقوموا بالبناء بالقرب من «جراند كنال»! والتي لديها الآن القوة لهدم المباني القديمة، وهو عادةً ما يحدث، ولكن هذا عملهم. في «فينيسيا» الجميع حمقى، إذا حاول أحدهم أن يفكر في الأمر.

أصبح في حوض «سان ماركو»، فراح يجدف عبره؛ الكاتدرائية إلى جوار قصر «الدوج» لا تزال قائمة مهيبة بطول طابقيين فوق الساحة. الازدحام المروري كثيف كالعادة. كان المكان الوحيد في «فينيسيا» الذي لا يزال الناس يزدحمون فيه كما في الماضي، ولهذا السبب كان «كارلو» يستمتع بهذا المكان، على الرغم من السباب الذي يُطلقه عندما يتباطأ قارب أحدهم أمامه. راح يناور ويجدف شاقًا طريقه نحو نافذة الكاتدرائية.

كانت هناك ضوضاء تحت القبة التي تلمع بالألوان الزرقاء والذهبية. معظم المياه في غرف الكاتدرائية مغطاة بالمراسي العائمة. شد «كارلو» زورقه إلى أحدها، ثم رفع خزانات الغطس الأربعة، وصعد خلفها إلى المرسى. عبر المرسى حاملاً خزانين في كل يد، ومضى عبر سوق الأسماك المزدهم.

كان معروضاً للبيع هناك: سمك البوري، وسمك القرش من البحيرة، وسمك التونة، وسمك المحرات، وسمك موسى. المحار مكس في أطباق، تتألق أصدافه تحت شعاع الشمس القادم عبر الزجاج الملوّن للنافذة الشرقية، وراح الرجال والنساء يستخرجون السلطعونات الحية من فجوات المرسى، مغامرين بأصابعهم في مخابئ السلطعونات في الأسفل، وصبغت الأخطبوطات مياه الدلاء التي تحتويها بالحبر، بينما كان الإسفنج بالزبد، وارتفعت أصوات الصيادين ينادون بالأسعار المنخفضة لبضاعتهم، ويتندرون على طزاجة بضاعة جيرانهم.

في منتصف سوق السمك، كان هناك «لودفيكو سالرنو»، أحد أفضل أصدقاء «كارلو»، في محل أغراض الغطس الذي يملكه. كان عميلاً «كارلو» اليابانيين هناك. ألقى عليهما التحية، وناول الخزانين إلى «سالرنو»، الذي راح يعيد تعبئتهما بماكينته. راحا يتبادلان الحديث بالعامية الإيطالية بسرعة، بينما الخزانان يمتلئان. عندما انتهى ملء الخزانين، نقد «كارلو» صديقه الثمن، ثم قاد اليابانيين إلى قاربه. اعتليا القارب، وخزنا حقائب الظهر خاصتهما تحت صاري الشراع، بينما كان «كارلو» يقوم بتحميل خزانات الغطس على متن القارب.

سأله أحدهما:

- هل نحن جاهزون لرحلة «تورتشيللو»؟

فابتسم الآخر وكرر السؤال. كان اسماهما: «هامادا» و«تاكو». راحا يُطلقان النكات عن تشابه اسم «تاكو» مع «تافور»؛ اسم عائلة «كارلو». كان «تاكو» قليل المعرفة باللغة الإيطالية؛ لذلك لم تستمر سخريتهما لفترة طويلة. كانا قد استأجرا منذ أربعة أيام مضت، من حانوت «سالرنو».

أجاب «كارلو»:

- بلى.

ثم راح يجدف عبر الساحة راجعاً إلى القناة متجهاً عبر ساحة «كامبو سانتا ماريا فورموسا»، والتي كانت مزدحمة كما الساحة الكبيرة نفسها. بعدما تجاوزها أصبحت القناة خالية، إلا من منزل سقفه يُفسيد الطمانينة الغامرة.

قال «هامادا» ملاحظاً:

- هذا القسم من المدينة لا يعيش فيه كثير من الناس، لا يُوجد مساكن فوق أسطح البيوت.

رد «كارلو»، وهو يجدف في اتجاه كاتدرائية «سان تزانيبولو» والمستشفى، ثم أردف موضعاً:

- إن المكان هنا قريب جدًا من المستشفى، الذي يحتوي العديد من الأمراض..
المرض كما تعرفون.

- أها.. المستشفى.

أوما «هامادا» برأسه، وكذلك فعل «تاكو»، ثم قال «هامادا»:

- لقد سبحنا في المستشفى في زيارتنا السابقة لـ«فينيسيا»، وأنقذنا العديد من التماثيل
الجميلة من الغرف السفلية.

أضاف «تاكو»:

- أسود حجرية.. العديد من الأسود الحجرية المجنحة في غرفة على عمق أربعة
وعشرين مترًا.

قال «كارلو»:

- أهذا صحيح؟

وراح يفكر في الأسود الحجرية وهي منصبة في مدخل منزل فاخر لرجل أعمال
ياباني في مكان آخر من العالم. حاول أن يُغيّر أفكاره بمشاهدة تلك الوجوه النضرة
التي تشبه الأقنعة للراكبين اللذين راحا يضحكان على ذكرياتهما القديمة. كانوا قد
أصبحوا فوق «فوندامنتي نوبا»، الحد الشمالي للمدينة، المطل على البحيرة. كانت
هناك موجة طويلة قادمة من جهة الشمال. تحرك «كارلو» فوق القارب ليرفع
شراعه الوحيد. كانت الرياح قادمة من جهة الشرق، وهو ما يوفر وقتًا ثمينًا
لرحلتهم، في اتجاه الشمال نحو «تورثيللو». خلفهم، كانت «فينيسيا» تبدو رائعة
في ضوء الصباح، وكأنهم على بُعد أميال عنها، يحجب الأفق المائي عنهم منظرها
الكامل.

كان اليابانيان قد كَفَّوا عن الحديث، وراحا ينظران إلى الجانب. كانوا فوق مقبرة
«سان مايكل»؛ كما ميّزها «كارلو». كان تحتهم الجزيرة التي ظلت مقبرة المدينة
الرئيسة لقرون، كانوا يبحدون فوق حقل من القبور، والأضرحة، وشواهد القبور،
والتي في حال المد المنخفض يمكن أن تُصبح تهديدًا للملاحة. فقط ما يكفي من كتل
بيضاء غريبة التي يمكن - حقيقةً - أن تُقنع أحدهم أنها من بنات الفكر المعماري
للسمك. رسم «كارلو» علامة الصليب على صدره؛ ليجعل عمليته متأثرين، ثم
جلس إلى الدفة. شد الشراع؛ فارتفع القارب، ووثب فوق الموج.

بعد أقل من عشرين دقيقة، كانوا قد بلغوا «مورانو»، وراحوا يلتفون حول حافتها.
«مورانو» مثل «فينيسيا»؛ مدينة فوق جزيرة، تتقاطع عبرها القنوات، كانت بلدة
طريفة قبل الطوفان. ولكنها تفنقر إلى الأبنية العالية التي في «فينيسيا»، وقيل إن
النهر الذي يجري تحت الماء قد مزّق جزرها.. على أي حال كانت حطامًا. كان
اليابانيان يرتجفان من الإثارة.

سأل «هامادا»:

- هل يمكن أن نزور هذه المدينة هنا يا «كارلو»؟

رد «كارلو»:

- إنه أمر خطر؛ فالأبنية قد سقطت في القنوات.

أوما برأسيهما، وتبسما، ثم قال «تاكو»:

- هل يعيش أحد هنا؟

- بلى، القليل. ويعيشون في أعلى المباني في الطوابق التي لا تزال فوق سطح الماء، ويعملون في «فينيسيا». وبهذه الطريقة يتجنبون بناء مساكنهم فوق أسطح البنايات في المدينة.

ظهرت على وجهي الرجلين علامات عدم الفهم.

قال «كارلو»:

- إنهم يتجنبون نقص المساكن في «فينيسيا».. هناك نقص كبير في المساكن في «فينيسيا» كما لاحظتما.

فهم المستمعان النكتة هذه المرة، فضحكا باقتضاب.

قال «هامادا»:

- يمكن أن يعيشوا في الطوابق السفلية، إن كان معهم معدات مثل هذه.

وأشار إلى معدات الغطس التي تخص «كارلو».

أجاب «كارلو»:

- بلى، أو يمكننا أن نربي خياشيم.

ثم ضيق عينيه ولوح بأصابعه على عنقه إشارة للخياشيم.. أعجبت النكتة اليابانيين.

مضت «مورانو»، وأصبحت البحيرة بعدها خالية لبضعة أميال، وضوء الشمس المنعكس فوق الأمواج الزرقاء يغطي العيون. كان القارب يتأرجح إلى الأعلى والأسفل، وراحت الرياح تشد حبل الشراع من يد «كارلو». بدأت السعادة تغمره، فقال:

- ثمة عاصفة قادمة.

وأشار بيده متطوعاً ليبيّن لهما خطأ أسود يمتد في الأفق جهة الشمال. كان مشهداً شائعاً؛ العواصف العنيفة القصيرة تأتي عبر ممر «برينير» من جبال «الألب» النمساوية، وتغرق في طريقها وادي «بو» وبحيرة «فينيسيا»، قبل أن تتبدد في «البحر الأدرياتيكي»، تفعل ذلك مرة أو أكثر كل أسبوع، حتى في الصيف. وهذا هو السبب في أنهم يعقدون سوق الأسماك تحت قبة «سان ماركو»؛ فالجميع لا تناسبه التجارة تحت المطر. حتى اليابانيان ميّزا السحب، فقال «تاكو»:

- سوف تسقط أمطار غزيرة هنا قريبًا.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه «هامادا»، وقال:

- «تاكو» و«تافور» متنبئان بالطقس بلا شك، يا لها من صحبة كبيرة!

ضحكوا، فسأل «كارلو»:

- هل هو كذلك في اليابان؟

قال «تاكو»:

- بلى، في الحقيقة، إنها تمطر يوميًا في اليابان. سوف تمطر غدًا بالتأكيد.. متبئ الطقس.

سأل «كارلو» بعدما توقفوا عن الضحك:

- هل أغرق المطر بعض مدنكم أيضًا؟

- ما الذي هنا؟

- أليس لديكما ما هو مثل «فينيسيا» في اليابان؟

بدا أنهما لا يريدان الحديث عن الأمر، فقال «هامادا» ضاحكًا:

- أنا لا أفهمك.. كلا، لا توجد «فينيسيا» في اليابان.

استمروا في الإبحار قُدماً. أصبحت «فينيسيا» تحت خط الأفق، وكذلك «مورانو»، قريبًا سوف يبلغون «بورانو». راح «كارلو» يقود قاربه عبر الأمواج، وهو يستمع إلى ترثرة صاحبيه بلغتهما غير المفهومة، أو بإيطالية رديئة تجعله يشعر بالغضب وبرغبة في أن يعض حافة القارب في جنون.

راحت «بورانو» تختفي تدريجيًا وراء الأفق؛ برج جرس الكنيسة أولاً، ثم تبعه القليل من الأبنية التي لا تزال فوق الماء. «مورانو» لا تزال مأهولة، وبها سوق صغير، بل ومهرجان صيفي، ولكن «بورانو» خاوية. برج الكنيسة فيها يقف بزواية مميزة؛ كما الصاري في سفينة غارقة. لقد كانت بلدة فوق جزيرة قبل عام 2040، الآن القنوات تمر بين أسقف المنازل. كان «كارلو» يكره تلك البلدة؛ فابتعد عنها. بينما راح صاحباه يتجادلان حولها في هدوء باليابانية.

بعد «بورانو» بنحو ميل، كانت هناك «تورتشيللو»؛ بلدة مهجورة أخرى. برج الكنيسة خاصتها يمكن أن تراه من «بورانو»، طويل وأبيض في تضاد مع السحب السوداء في الشمال. راحوا يقتربون في صمت. طوى «كارلو» الشراع، وأجلس «تاكو» على مقدمة القارب؛ ليلاحظ أيَّ عقبات، ثم راح يجذف بحذر حتى حافة المدينة.

كانوا يتحركون بين أسطح الأبنية والجدران النابتة مثل الشعاب المرجانية أو الأساسات القديمة البارزة من الأرض. كثيرٌ من بلاطات الأسقف والأعمدة كانت قد سُلبت من الأبنية وأخذت إلى «فينيسيا». كان هذا قد حدث لـ«تورتشيللو» من قبل؛

ففي أثناء عصر النهضة كانت «تورتشيللو» تنافس «فينيسيا»، ومفخرة سكانها الذين يبلغون نحو عشرين ألفاً، ولكنها هُجرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ فأصبح البنّاعون يأتون من «فينيسيا» إليها؛ بحثاً عن رخام جيد أو درجة سلم ذات أبعاد مناسبة بين أطلالها. بعد ذلك بفترة قصيرة، عاد إليها قليل من السكان الذين أنشئوا القصور؛ ليستضيفوا السياح ذوي المزاج العكر الذين يناسبهم المكان. ولكن المياه ارتفعت، وماتت «تورتشيللو» في سلام. دفع «كارلو» الجدار بمجدافه؛ فسقط قسم كبير من الجدار وغرق.. حاول ألا يلتفت.

أبحر بهما نحو مساحة مفتوحة في الماء كانت ذات يوم ساحة. حولهم تقف بعض أسقف الأبنية السليمة، ليست أعلى من صاري قاربهم. وتبدو من تحت الماء بصورة غامضة، جدران من حجارة محطمة وقوالب قرميد متآكل. كان من الصعب معرفة كيف كان شكل شوارع البلدة. في جانب الساحة، كانت هناك كاتدرائية «سانتا ماريا أسونطا»، لا تزال واقفة بشكل ما، ولا يزال برج كنيستها الأبيض صامداً وقوياً، وكأنه لا تزال هناك بلدة.

قال «هامادا»:

- هنا الكنيسة التي نرغب أن نغطس فيها.

أوماً «كارلو».. فجأة كل التسلية التي كان يشعر بها في أثناء إبحاره اختفت. راح يبحر حول الساحة باحثاً عن بقعة مستوية يمكن أن يرسو فيها ويضع فوقها خزانات الغطس. كانت الكنيسة وملحقاتها تمثل مجماً كبيراً تحت الماء. وعند موضع معين، احتك القارب بحافة أحد الأسقف. راحوا يبحرون على طول صحن الكنيسة، وينظرون عبر النوافذ العالية، المغمورة بالماء. لم يُفاجأ. كانت هناك نافذة صغيرة في أحد جوانب برج الكنيسة قد تم توسعتها باستخدام المطارق الثقيلة، ومباشرةً عبرها يمكن أن ترى قليلاً من الدرجات الحجرية، وبعدها بخطوات الأرضية الحجرية.

شدوا القارب إلى الجدار، وأنزلوا خزانات الغطس إلى الأرضية. على الضوء الخافت،

يمكن أن ترى الحجارة الداخلية تُفسدها الظلال. كانت تبدو كأنها جذع خشن. بنى سكان «تورتشيللو» برج الكنيسة على عجالة، وهم يظنون أن نهاية العالم أصبحت وشيكة بحلول نهاية الألفية، العام 1000 م. راح «كارلو» يفكر: «كم مرت فترة طويلة منذ أن قاموا بذلك!». تسلقوا درجات السلم إلى أعلى، إلى أن بلغوا غرفة الجرس التي يغمرها الضوء، ومن جوانبها يمكن أن تُرى «بورانو» و«فينيسيا» على المدى، وجهة الشمال، المناطق الضحلة من بحيرة «فينيسيا» والنشاطى الإيطالي. وخلف ذلك، السحاب الأسود متراص كأنه جدار يختفي وراء الأفق، ولكنه يرتفع؛ العاصفة سوف تأتي.

نزلوا إلى الماء، واضعين خزانات الغطس، وراحوا يتحركون في الماء إلى جانب برج الكنيسة. كانوا فوق مُجمّع أبنية الكنيسة المظلم، ببطء راح «كارلو» يقود

اليابانيين إلى الساحة، قبل أن يسبحا إلى أسفل. كانت الأرضية تغطيها الأوحال، وحرص «كارلو» ألا يخطوا فوقها. رأى مقعداً حجرياً ضخماً في منتصف الساحة، كان يُسمّى «عرش أتيل»، ولا أحد يعرف سبب ذلك، ولكنه عرفه من واحد من كتبه المهترئة. أشار بعضهم إلى بعض، وراحوا يسبحون نحوه. أحد اليابانيين قام بمحاولة مضحكة ليقف على القاع ويمشي باستخدام زعانفه؛ فأثار عاصفة من الوحل. انضم الثاني إليه، وراح كل منهما يجلس على العرش الحجري، فنتصاعد أعمدة من فقاعات الهواء، بينما يلتقط كل منهما صورة للآخر بكاميراتها التي تعمل تحت الماء. خطر على بال «كارلو» أن الوحل سوف يُفسد الصور. بينما راحا يمرحان، كان يفكر: «ما الذي يريدانه من الكنيسة حقاً؟!».

أخيراً، سبح «هامادا» نحوه، وأوماً نحو الكنيسة، بينما كانت عيناه تحت القناع تتألقان بالإثارة. راح «كارلو» يحرك زعنفتيه ببطء إلى الأعلى وإلى الأسفل، يقودهما نحو مدخل الكنيسة الكبير في المقدمة. كانت الأبواب قد اختفت. راحوا يسبحون نحو الكنيسة.

كانت الكنيسة بالداخل غارقة في الظلام، فأخرجوا مصابيحهم الكهربائية وأضاءوها. تحولت مخروطات من المياه المظلمة إلى بلورية عندما اخترقتها أشعة الضوء. كانت أرضية الكنيسة من الداخل مغطاة بالوحل. راقب «كارلو» عمليه يسبحان حول المكان، بينما راح يطوف بضوء مصباحه الكهربائي على جدران المكان. بعض النوافذ الغارقة لا تزال سليمة. كان شكلها غريباً. في بعض الأحيان، كان شعاع الضوء يسقط على عمود من فقاعات الهواء فيُحيلها إلى اللون الفضي.

بسرعة كافية، ذهب اليابانيان إلى اللوحة الموجودة في الجانب الغربي من صحن الكنيسة المصنوعة من بلاطات الفسيفساء. «تاكو»، كما خمن «كارلو»، راح يزيل الوحل من فوق البلاطات؛ فأظهر ألوانها إلى حد كبير. ذهب إلى اللوحة الكبيرة أولاً، تلك التي تُصوّر الصَّلب والقيامة ويوم الحساب، كانت لوحة ثرية. سبح «كارلو» إلى أعلى؛ ليرى بشكل أفضل. انتقل اليابانيان إلى اللوحة الثانية في الناحية الأخرى من الكنيسة بمجرد أن انتهيا من تنظيف اللوحة الأولى. في الناحية الأخرى، كانت ثمة لوحة فسيفساء أخرى فوق الصناديق البارزة من محراب الكنيسة. راح «كارلو» يتبعهما.

لم يحتاجا إلى وقت طويل لتنظيف اللوحة الثانية، وعندما أصبح الماء رائقاً، طفا الثلاثة في الماء، وأضواء مصابيحهم الكهربائية تسقط على اللوحة وتُظهرها بوضوح.. كانت لوحة «العذراء المقدسة» تقف أمام الخلفية الذهبية المملة، حاملة طفلها بين ذراعيها، وتتنظر إلى العالم نظرة يملؤها الألم والمعرفة.

دفع «كارلو» قدميه؛ ليرتفع فوق اليابانيين، مُتّبناً ضوءه على وجه العذراء. كانت تبدو وكأنها تعرف المستقبل كله، منذ تلك اللحظة وإلى ما بعدها؛ حياة ابنها القصيرة، كل الفزع والمحن التي سوف تأتي فيما بعد.. كانت هناك دمعة من الفسيفساء على وجنتها. على مرأى منهما، كان «كارلو» بالكاد يمكنه أن يتحسس الدموع التي نزلت منه ولحقت بالماء الذي على وجهه. شعر بأنه قد انتقل فجأة إلى

كنيسة بأعماق المحيط، وأن ضغط مشاعره يهدد بالانفجار، بشق الأنف استنطاع أن يوقفه. أصبح الماء باردًا، وشعر أنه يرتجف، وتصاعدت فقاعات هواء سميكة مُشكِّلةً عمودًا متصلًا.. بينما كانت العذراء تنتظر. بضربة واحدة ابتعد عن المكان، وكسمتين مفزوعتين، راح رفيقاه يتبعانه. قادهما «كارلو» خارج الكنيسة إلى الضوء الموحل، ثم صعد بهما إلى السطح، إلى القارب، وإلى النافذة.

خلعوا زعانفهم، وجلس «كارلو» على درجات السلم يقطر ماءً. تراحم «تاكو» و«هامادا» على النافذة وانضما إلى «كارلو». تبادلوا الحديث معًا باليابانية للحظة، وهما في قمة إثارتها، بينما راح «كارلو» ينظر إليهما مسودًا. تحول «هامادا» نحو «كارلو»، وقال:

- ها هي اللوحة التي نريدها؛ «العذراء والطفل».

صرخ «كارلو»:

- ماذا؟!!

رفع «هامادا» حاجبيه:

- نريد أن نأخذ هذه اللوحة معنا إلى بلدنا.. إلى اليابان!

- ولكن هذا مستحيل؛ اللوحة مصنوعة من الفسيفساء وملتصقة بالجدار.. ليس ثمة طريقة لنزعها من الجدار!

قال «تاكو»:

- الحكومة الإيطالية سمحت...

أسكته «هامادا» بإشارة منه، وقال:

- الفسيفساء، حسنًا. سوف نستخدم الأدوات التي جلبناها معنا تحت الماء، وطُرُق البحث الأثري.. أنت تفهم ذلك؛ سوف نُقطّع الجدار إلى كتل، ونُرَقِّمها، ثم نجمعها في المكان الجديد في اليابان فوق الماء.

وابتسم ابتسامة لؤلؤية.

قال «كارلو» متحديًا بقوة:

- لا يمكنك أن تقوم بذلك.

قال «هامادا»:

- أنا لا أفهمك.. الحكومة الإيطالية سمحت لنا بذلك.

قال «كارلو» بوحشية:

- هذه ليست إيطاليا.

وفي غضبه هب واقفًا.

- ماذا سوف تفعل العذراء في اليابان بأيّ حال؟ إنهم حتى ليسوا مسيحيين هناك.
وفي غضبه لوَّح خطأً إلى جهة الجنوب الشرقي؛ مما زاد من ارتباك مستمعيه أكثر.
- إيطاليا هناك.

- هذا المكان لم يكن قط إيطالياً. هذه هي «فينيسيا».. «الجمهورية».
- أنا لا أفهمك.

كان يستخدم العبارة كأنها درع، ثم استرسل:
- لقد منحتنا الحكومة الإيطالية تصريحًا بذلك.

قال «كارلو»:

- ربّاه!

وتوقف قليلاً شاعرًا بالاشمئزاز، ثم قال:

- كم من الوقت سوف يستغرق هذا؟

- الوقت؟ سوف نقوم بهذا بعد الظهر. وغدًا نضع الكتل هنا، ثم نستأجر سفينة نقل
من «فينيسيا»؛ لحمل الكتل إلى هناك...

- تريدان أن تبقىا هنا بالليل؟ أنا لن أبقى هنا ليلًا.. تبّأ!

- لقد أحضرنا لك حقيبة نوم.

استشاط «كارلو» غضبًا، وقال:

- كلا، لن أبقى هنا أيتها الضباع الكافرة البائسة.

ثم حمل خزان الغطس الخاص به.

- أنا لا أفهمك!

جفف «كارلو» نفسه، وارتدى ملابسه، ثم قال لهما:

- سوف أدعكما تحتفظان بخزانات الغطس. وسوف أعود لكما غدًا متأخرًا بعد
الظهر.. هل فهمتما؟

حدّق «هامادا» فيه بثبات دون أيّ تعبيرات، وقال:

- بلى، هل سوف تُحضِر سفينة تحميل؟

- ماذا؟ بلى.. بلى، سوف أُحضِر لك سفينة تحميل يا سمكة «السلور» (2) آكلة الوحل
البائسة.. نسور آكلة جيف!

ثم مضى يُخرج القارب من النافذة.

أشار «تاكو» نحو الشمال، وقال مبتسمًا:

- العاصفة قادمة.

وبينما يدفع «كارلو» القارب ويبدأ التجديف، قال له:

- تبتاً لك أنت وهي.. أتفهم؟

أبحر مبتعداً عن «تورتشيللو»، عائداً نحو بحيرة «فينيسيا». كانت العاصفة قادمة حقاً، وكان عليه أن يُسرِع. رفع الشراع ومدّه؛ ليغطي به كل شيء في القارب تقريباً، عدا المقعد الذي يجلس فوقه. كانت الرياح تأتي من الشمال الآن، قوية لكن منقطعة. كانت تشد الشراع، فأخذ القارب يثب فوق الأمواج المتلاطمة، تاركاً وراءه أثراً أبيض يتتافر مع سواد السماء. تراجعت السحب عن السماء كأنها ستارة مسدلة؛ فانكشف نصف السماء؛ نصف السماء يغطيه السواد، ونصفها الآخر خليط من درجات اللون الأزرق، يحد بينهما خط مميز. كانت تشبه أولى العواصف العظيمة التي جاءت عام 2040م كما خمن «كارلو»، تلك التي غطت «فينيسيا» بغطاء من الصوف الأسود، وأغرقتها بالماء لأربعين يوماً، فلم تُعد «فينيسيا» نفسها كما كانت من قبل ولا أصبحت كأى مكان آخر في العالم.

الآن، أصبح إلى جوار أطلال «بورانو»، وعلى خلفية السماء السوداء كان يرى برج الكنيسة الغارق، وفجأة عرف لماذا يكره منظر تلك البلدة المهجورة؛ لأنها رؤية عما سوف تكون عليه «فينيسيا»، نموذج خشن من المستقبل. إذا ارتفع سطح الماء بنحو ثلاثة أمتار؛ فإن «فينيسيا» سوف تصبح «بورانو» كبيرة. وحتى لو لم يرتفع الماء، فإن مزيداً من الناس سوف يهجرون «فينيسيا» كل عام، ويوماً ما سوف تُصبح خالية. شعر بذلك الحزن الذي يملكه عندما كان ينظر إلى «لوحة العذراء»، يغمره مرة أخرى، حُزن أصبح عميقاً لا قاع له. محدقاً في البرج المتداعي، قال:

- تبتاً!

ولكنه لم يشعر بأن ذلك كافٍ، ولم يعرف الكلمات التي تجعل الأمر كافياً.

- تبتاً!

بمجرد أن عبر «بورانو»، بدأت تهب العاصفة. كانت تدفع الشراع من يده؛ فاضطر أن يقبض عليه بقوة، ثم طواه إلى أقل مساحة ممكنة، حتى لم يبق إلا رقعة صغيرة من الشراع مُعرّضة للريح، ومع ذلك ظل القارب يقفز فوق الأمواج، وراح صاري الشراع يئن كأنه سوف يتمزق. الأمواج المتلاطمة أصبحت رؤوساً بيضاء، تتعرج قممها وتتطاير رذاذاً في الهواء؛ بفعل الرياح العاوية، مكونة رغوة بيضاء في السواد.

فكر «كارلو» أنه من الأفضل أن يتجه إلى «مورانو»؛ بحثاً عن مأوى. كانت الأمطار قد بدأت في الهطول، وكانت أبرد من مياه البحيرة، وبالكاد تسقط أفقياً. كانت الرياح تشدد، والشراع الذي أصبح بحجم المنديل يكاد يخلع صاري القارب. قال:

- ربّاه!

وصعد مرةً ثانيةً لسطح القارب، ومضى نحو الصاري ليطوي ما تبقى من الشراع بأصابع متجمدة عاصية، ثم عاد للقمرّة تحت سطح المركب يائساً، بينما القارب يتعرج. كان القارب يواجه الأمواج بالعرض تقريباً، فأمسك «كارلو» الدفة بسرعة وأدارها في الوقت المناسب، لتلقى موجة ضخمة شرسة؛ فارتجف بارتياح. أصبحت كل موجة أكبر من التي تسبقها، وأصبح الموج يعصف بالبحيرة بسرعة. راح يفكر: ما الذي ينبغي أن يفعله الآن؟ هل يستخدم المجاديف؟ كلا، هذا لن يُجدي، يجب أن يبقى قاع القارب فوق الموج، إلى جانب هذا لا يمكنه أن يجدف بكفاءة في هذه العاصفة الهوجاء. إنه مضطر لأن يذهب إلى حيث تذهب الأمواج، فكر لحظة، هذا يعني أنه إن لم يبلغ «مورانو» أو «فينيسيا»، فسوف يكون «البحر الأدرياتيكي».

بينما راحت الأمواج تتلاعب بقاربه، راح هو يفكر متأملاً. صاري القارب يعمل كأنه شراع؛ بفعل قوة الرياح. بينما راحت الرياح تهب منحرفة من الغرب إلى الشمال. كانت الأمواج التي يراها هي أكبر أمواج رآها طوال حياته في البحيرة، بل لعلها الأمواج الأكبر التي شهدتها البحيرة، وكانت تتجه في نفس اتجاه الرياح؛ هذا يعني أنه سوف يُفوّت «فينيسيا» التي تقع جنوباً، وربما انحرف نحو جهة الجنوب الغربي. وكل هذا لأنه غضب من اليابانيين و«لوحة العذراء المقدسة».. ما الذي كان يهمله في لوحة فسيفساء غارقة في «تورثيللو»؟! لقد ساعد الأجانب من قبل في البحث عن أحد الخيول البرونزية، التي في كنيسة «سان ماركو»، التي سقطت، واستخرجه.. وأكثر من واحد من تلك الأسود الحجرية؛ رمز المدينة.. وأجزاء من «جسر التتهادات». بحق الرب، ما الذي قد جرى له؟! ما الذي جعله يهتم بأمر لوحة فسيفساء منسية؟!!

حسناً، لقد فعلها، وها هو الآن هنا، لا يمكن أن يبذل الأمر. كل موجة كانت ترفع مؤخرة قاربه في البداية، ثم تنزلق تحت القارب حتى يكاد أن يراها أسفل منه لو أنه ينتبه لذلك، ويرى صاري قاربه تقريباً وقد أصبح أفقياً، حتى يعود ويرتفع من جديد فوق قممها المزبدة، كل موجة تبدو أنها سوف تحطم قمرته أسفل سطح القارب وتغرقه في الثانية التي يُصبح

فيها في منتصف الهواء. كانت الدفة قد تحررت وأصبحت لا فائدة منها، حتى سُحقت في الموجة اللاحقة. في كل مرة ترفع موجة القارب، يفكر وهو في الأعلى؛ تلك الموجة هي القاضية. وعلى الرغم من أنه كان مبتلاً، والرياح والأمطار باردان، فإن الفورات المتكررة من الأدرينالين، ومعطفه الصوفي الثقيل، قد حفظا بدنه دافئاً. مئة موجة وأكثر أقنعتة أن الموجة التالية سوف تنزلق تحت القارب وتمر في سلام كأنها الأخيرة، فاسترخى قليلاً. لا شيء ليقوم به؛ فقط الانتظار، والحفاظ على مؤخرة القارب فوق الموج، وسوف يكون على ما يُرام.

فكر أنه بالتأكيد يجب أن يركب هذه الأمواج ليعبر «البحر الأدرياتيكي» حتى تحط به في «ترياستا» أو «ريكا»؛ واحدة من تلك البلدتين التي احتلتا مكانة «فينيسيا»..

ملكة «البحر الأدرياتيكي». حلتا محلها وأصبحتا أميرتي «البحر الأدرياتيكي»، وهما اللتان لم تكونا إلا عاهرتين ضئيلتين. ورأى أن من الأفضل له أن يستدير للخلف وابتعد عن هذه العاصفة.

من ناحية أخرى، «ليدو»⁽³⁾ أصبح مغطّي معظمه بالشعاب المرجانية، وأمواج بمثل هذا الحجم سوف تتحطم فوقه، وتُحطم قاربه بالتأكيد. لكن يجب أن يكون واقعياً، فأعالي «البحر الأدرياتيكي» متسعة، وخطأ واحد فوق واحدة من هذه الموجات، وهو ما سوف يفعله في النهاية، ثم ينقلب ويتحطم ويغرق لينضم إلى الآخرين من بحارة «فينيسيا» الذين انتهوا في قاع «البحر الأدرياتيكي». وكل هذا من أجل «العذراء الحزينة». جلس «كارلو» منحنياً في مؤخرة القارب، قابضاً على الدفة يُعدّلها بدقة مع كل موجة، متجاهلاً كل شيء آخر؛ فوضى الماء والرياح المظلمة المولولة التي لا أفق لها والتي تحيط به من كل جانب، مباركاً بطريقة بائسة، يبحر نحو حتفه، بما يليق بملاح، ولكنه أبقى «ليدو» بعيداً عن أفكاره.

ظل يُبحر فُدمًا، فاقداً جس الزمن، وهو ما يشعر به أي شخص يتحرك دون أن يرى موضعاً ثابتاً. موجة تلو موجة تلو موجة. تجمّع قليل من الماء في قاع القارب، فاندردت معنوياته؛ فلا مكان يذهب إليه، والقارب أخذ في الغرق تحت منه. ثم انضمت رياح هوجاء عاتية مولولة. ثم نظر خلفه في الاتجاه الذي كان يقود متجهاً إليه، ليرى خطأ أبيض يمتد من اليسار إلى اليمين؛ فوثب قلبه وت فجر فيه الخوف. لقد كان هو؛ «حاجز ليدو المرجاني» يعترض الأمواج. كانت الأمواج تتسحق فوقه، وكان بإمكانه أن يرى جدراناً بيضاء تكاد تبلغ السماء تتفجر إلى لا شيء. بلغ خوفه حد الرعب.. كان من السهل أن يضيع في البحر.

وهناك، بين الأمواج البيضاء المتكسرة، كان ثمة إصبع رمادي يرتفع على الخلفية السوداء.. برج جرس. اضطر «كارلو» أن يُحوّل نظره للخلف نحو الموجة التي تمر تحته ليُقوم اتجاه القارب، ولكنه عندما نظر من جديد كان لا يزال قائماً؛ برج جرس يقف هناك كأنه فنار ميت. قال بصوت عالٍ:

- ربّاه!

بدا أن الأمواج قد دفعته نحو منّي متر نحو الشمال بعيداً عن البرج. كل مرة كانت ترفعه فيها موجة، كانت لديه تلك اللحظات التي ينزلق فيها القارب للأسفل، حتى وكأنه سوف يخترق هذه الموجة التي تمر تحته، وفي تلك اللحظات، يدفع بالدفة قليلاً، بينما يصعد القارب من جديد نحو السطح، ليتجه القارب نحو الجنوب، حتى ترفع الموجة مقدمة القارب فيقوم اتجاهه. كان يكرر هذه العملية المعقدة مرة بعد مرة، حتى يكاد أن يثقب القارب بنفاد صبره. ولكن هذا لن يحدث حتى تأخذ من الموجة القدر الذي تعطيه لك؛ هكذا فكر.

أصبح «ليدو» أقرب، وبدا ولو أنه وراء البرج مباشرةً. لقد كان البرج الذي في مدخل قناة «ليدو»، أو هذا الذي في جزيرة «بيلسترينا» في الجنوب، لم يكن لديه طريقة للمعرفة ولم يُبال. لقد كان فقط سعيداً بأن أسلافه قد بنوا مثل هذا البرج القوي. بين الأمواج، نزل أسفل القارب وبلمسة وجد خطاف رسو قاربه والحبل

الطويل الذي يحمله. حقيقة، سوف يُمثل ذلك مشكلة، عندما يبلغ البرج، لن يستطيع أن يمرره بلا قوة لما يزيد على بضعة أمتار، ومن الناحية الثانية لا يمكن أن يتوقع أن يتحطم على البرج ويبقى حيًّا، ليس في هذه الأمواج. حقيقةً، أكثر ما كان يهمه، الطريقة التي سوف يفعل بها ذلك، فتوقف عن التفكير في ذلك، وراح يركز في الأمواج.

الموجة الأخيرة كانت الأكبر. ولما انزلق القارب إلى أسفل الموجة، بدت الموجة أكثر انحدارًا، حتى لاح أن القارب سوف تسحقه هذه الموجة للأبد. كان برج الجرس يلوح في الأفق؛ ضخماً، وأسود، وحوله كانت الأمواج تضرب عاليًا، ثم تتحطم بهدير حاد قاتل. من الخلف، كان «كارلو» بإمكانه أن يرى الماء ينسحب فوق حاجز الموج، في دفعات قصيرة، ولكنها كأنها شلالات واسعة لا نهائية. كان الصوت هائلًا على قمة الموجة، بدا وكأنه يمكن أن يقفز إلى نافذة البرج العليا البعيدة عن خطاف الرسو؛ فانحرف بالدفة قليلاً، وسحب ثلاثة أنفاس عميقة. وفي وسط هدير الأمواج، ضربته موجة قبل أن يبلغ البرج الحجري، فصفعته

وتناثرت فوقه، فحوّل الدفة بصعوبة، فاندفع القارب في إثر البرج الواقف، وطوّح بخطاف المرساة نحو النافذة العالية، فأمسكت به، وتوقف القارب بصعوبة.

أصبح في البرج، المياه المتكسرة تصعد وتنزل عن قاربه، بالكاد يسمع صوتها، ودون عنفٍ بإحدى يديه راح يربط نهاية الحبل حول قاعدة صاري القارب، ويربط بالأخرى خطاف المرساة. الخطاف أمسك جيداً، فخاطر بأن ينحني إلى أسفل ليحكم الحبل حول قاعدة الصاري، ومخاطراً ثانيةً عندما رفعت موجة هائجة القارب، فوثب مغادراً مقعده، ليمسك بالنافذة الحجرية، والتي كانت سميكة جداً ليمسك بها بأصابعه، فتعلّق عليها بأطراف أصابعه. بقوة اليأس، سحب نفسه لأعلى، ليقبض بيد واحدة على حافة النافذة، ويدفع بنفسه إلى الداخل.

كانت الأرضية الحجرية تنخفض نحو أربعة أقدام عن مستوى النافذة. وبسرعة، جذب حبل الخطاف إلى الداخل، ووضع على الأرضية، قبل أن يترك الحبل.

نظر خارج النافذة، القارب يعلو ويهبط.. حسناً، سوف يغرق أو لن يغرق. أيًا كان، فهو آمن. عندما أدرك ذلك، تنفس بعمق، ثم صرخ. تذكر لحظة أن قفز إلى البرج، ووجّه بالكاد على بعد مترين من أن يغرق في موجة تضربه من الأمام، لقد قفز على نحو مُتَقَن. لن يستطيع أن يكرر ذلك ولو قام بمليون محاولة. انفجر ضاحكاً ضحكة ظفر، قصيرة، وحادة، وصاح:

- ها.. ها.. ربّاه!

سمع صوتاً خشناً من أعلى الدرج ينادي:

- من هناك؟

تجمّد «كارلو». ثم تقدّم بخفة نحو قاعدة الدرج الحجري، وتطلّع من خلال بئر السلم إلى الطابق السفلي، الذي يتلاعب فيه ضوء خافت. وضعه حسن؛ ففي الأعلى أقل

حلقة من أيّ مكان آخر. على الرغم من أنه كان خائفًا، فإنه نادى متفاجئًا أكثر منه مذعورًا، وهو يفتح عينيه أقصى ما يستطيع:

- من هناك؟

أسرع إلى خُطّاف القارب، وحلّ الحبل منه، وراح يبحث حوله فوق الأرضية المبللة إلى أن وجد كتلة حجرية يمكن أن يستخدمها كمرساة للقارب. نظر خارج النافذة؛ القارب لا يزال هناك، وعلى الجانبين، الأمواج البيضاء تتكسر فوق «ليدو». حاملاً خُطّاف القارب، راح يصعد ببطء الدرج الحجري، وهو يشعر أنه بعد كل ما تعرّض له، فإن بمقدوره أن يُمزّق أيّ شبح إلى أشلاء. كان مصباح شمعة، يتراقص ضوءها في غرفة مضطربة الهواء مليئة بالنفايات.

- إيك.. إيك.

- ربّاه!

- تبا.. ابتعد.

ثم انقض عليه كيان أسود صغير، مُهدّدًا بأشياء معدنية حادة.

قال «كارلو»:

- ربّاه!

ورفع الخُطّاف ليحمي به نفسه.. فتوقف الكيان.

- هل جاء الموت إليّ أخيرًا؟!

شاهدها؛ كانت سيدة عجوزًا تحمل إبرة دانتيل في كل يد.

قال «كارلو» وقد أخذت نبضات قلبه تتباطأ:

- كلاً، أقسم بالله يا جدتي إنني مجرد بحّار، قذفتني إلى هنا العاصفة.

سحبت المرأة قلنسوتها السوداء إلى الخلف، فكشفت شعرها الأبيض ذا الضفائر. ونظرت شزرًا نحوه، ثم قالت بريية:

- ولكنك تحمل منجلاً.

ارتسمت تجاعيد على وجهها بينما تُحدّق فيه.

قال «كارلو»:

- إنه مجرد خُطّاف قارب.

ومد يده بالخُطّاف لتراه؛ فتراجعت للخلف ومدت يديها بإبرتي الدانتيل مُهدّدة، فقال ثانية:

- إنه مجرد خُطّاف.. أقسم بالرب.. أقسم بالرب، بمريم، بالمسيح، بجميع القديسين.. يا جدتي، أنا مجرد بحّار من «فينيسيا» ألقت به العاصفة إلى هنا.

انتابه شعور برغبة جزء منه في الضحك.

قالت:

- حسناً، لقد وجدت ملجأً. لم أعد أبصر كما كنت.. تعال واجلس هنا.

استدارت ومضت تقوده إلى داخل الغرفة، وقالت:

- إنني أقوم بنسج الدانتيل؛ من أجل التكفير عن الذنب، كما ترى.. على الرغم من أن الضوء خافت.

ورفعت لوحة مُثَبَّتًا عليها الدانتيل، فلاحظ «كارلو» أن هناك فجوة كبيرة في النسيج، كما في نسيج عنكبوت جريح. قالت:

- بالكاد هناك ضوء.

والتقطت شمعة لتشعل بها أخرى، ثم راحت تدور في الغرفة وأشعلت ثلاث شمعات أخريات في مصابيحها موضوعة فوق طاولة، وصناديق، وخزانة الثياب. ثم مشت نحو كرسي ثقيل جلست عليه إلى جوار الطاولة، فجلس إلى جانبها.

بينما جلست أمامه، في الناحية الأخرى من الطاولة، ألقى نظرة على الغرفة: فراش مكسد فوقه عدد من الأغشية، وصناديق، وطاولات مغطاة بأشياء، الجدران الحجرية تحيط به، ودرج آخر يصعد نحو الطابق الأعلى من البرج. كانت هناك تيارات هوائية في الغرفة. قالت المرأة:

- اخلع معطفك.

ثم عدلت من وسادة على ذراع مقعدها وراحت تُدخِلُ فيها الإبرة وتُخرِجها وتسحب الخيط ببطء. أسند «كارلو» ظهره للخلف، وجلس يراقبها، ثم قال:

- هل تعيشين هنا بمفردك؟

ردت عليه:

- دائماً وحدي، ولكني ما عدت أريد ذلك.

الشمعة أمام وجهها، توهي لـ«كارلو» بوجه أمه أو وجه شخص ما يعرفه. شعر بالسلام يغمره في هذه الغرفة بعد العاصفة. انحنت السيدة العجوز فوق مقعدها، حتى كاد وجهها أن يلامس الوسادة، وما زال «كارلو» لا يستطيع أن يساعدها وهو يرى الإبرة تضرب بعيداً عن نسيج الدانتيل، وتضرب هنا وهناك بعشوائية؛ ربما كانت عمياء. وعلى فترات، راح «كارلو» يرتجف من الإثارة والتوتر، فمن الصعب أن يُصدّق أنه بعيد عن الخطر. بالكاد كانا يحطمان الصمت من آنٍ لآخر بمحادثة قصيرة، وجلسا في ضوء الشموع، غارقين في أفكارهما، كأنهما صديقان قديمان. سألتها «كارلو»، بعد واحدة من مرات الصمت الطويلة:

- كيف تحصلين على طعامك أو شموعك؟

- أضع الشراك في الأسفل للكرند، ويأتي إليّ الصيادون لمقايضة الطعام بالدانتيل، يحصلون دائماً على صفقة جيدة، لا يبخسوني، وأنا لا أبخسهم حقهم أبداً، أيّاً كان ما يقولونه...

ثم عبس وجهها في غم، ونظرت إلى النسيج وسكتت. راحت تغرز الإبرة بغضب؛ فأشاح «كارلو» بوجهه بعيداً. بغض النظر عن التيار الهوائي، كان يشعر أنه دافئ؛ إذ لم يخلع معطفه الصوفي، وبدأ يشعر بالنعاس.

- لقد كان رفيق روعي.. هل تفهم ذلك؟

استقام «كارلو» مرتعشاً، فرأى المرأة لا تزال عاكفة على وسادتها.

- ثم نبذني هنا.. هنا في هذا القفر، عندما بدأت الفيضانات، مع كلمات سوف أظل أتذكرها حتى آخر العمر، وإلى الأبد، حتى يأتيني الممات.. لكم تمنيت أن تكون أنت هو من يأتي لي بالموت!

وبدأت تبكي، واستطردت:

- ليتك كنت!

تذكر «كارلو» كيف كانت تهدده بالإبرتين. فسألها بلطف:

- ما هذا المكان؟

- ماذا؟

- هل هذا «بيلسترينا»؟ «سان لازارو»؟

قالت:

- هذه «فينيسيا».

شعر «كارلو» برجفة تجتاحه؛ فهب واقفاً.

قالت المرأة:

- أنا آخرهم.. الماء ارتفع، والسماء أمطرت، عهود الحب تحطمت وقادت إلى البؤس.

سوف أعيش حتى أرى ما يستطيع الإنسان أن يتحمل دون أن يموت. سوف أعيش حتى يغمر الفيضان كل العالم كما غرقت «فينيسيا». سوف أعيش حتى يموت كل كائن حي آخر.. سوف أعيش...

تلاشى صوتها، ونظرت إلى «كارلو» بفضول، وقالت:

- من أنت حقاً؟ أعرف.. أعرف.. بحار.

سألها ليغيّر الموضوع:

- هل هناك طوابق بالأعلى؟

حدقت فيه لوهلة طالمت قبل أن تتحدث أخيراً، وتقول:

- الكلام عبث.. لقد كنت أظن أنني لن أتكلم ثانيةً، حتى ولو لقلبي، وها أنا ذا أتكلم ثانيةً. بلى، هناك طابق بالأعلى سليم، ولكن ليس فوقه إلا الأطلال؛ فقد ضربت صاعقة غرفة الجرس فنسفتها، بينما كنت راقدة في فراشي.

وأشارت إلى فراشها، ووقفت وهي تقول:

- تعال، سوف أريك.

فبدت صغيرة الحجم تحت قلنسوتها. حملت مصباح الشمعة إلى جانبها، وتبعها «كارلو» صاعداً الدرج، مراقباً خطواته تحت الظلال المتراقصة. في الطابق الأعلى، كانت الرياح تدور، وعبر ممر الدرج وصولاً إلى الطابق الأعلى، كان «كارلو» يستطيع أن يُمَيِّز غماماً أسود. وضعت المرأة مصباح الشمعة على الأرض، وبدأت صعود الدرج وهي تقول:

- اصعد وانظر.

بمجرد أن خرج من بئر السلم، أصبح في مواجهة الرياح وتحت السماء. كان المطر قد توقف. كانت هناك كتل ضخمة من الحجارة فوق الأرضية، والجدران هُدمت بغير انتظام. صاحت المرأة ليعلو صوتها فوق صفير الرياح، وقالت:

- لقد حسبت أن البرج كله سوف ينهار.

أوماً برأسه، ومشى نحو الجدار الغربي، والذي لا يزال واقفاً، فنظر من فوقه، وكان يستطيع أن يرى الموج يدنو، ويعلو، ويضرب الحجارة تحته، فيرش الماء للخلف ولأعلى فتصيب وجهه. كان يستطيع أن يشعر بعصف الرياح عند قدميه، فيرتعب من قوته، كم كان من الصعب أن يُصدِّق أنه قد نجا من هذه الرياح وأصبح في أمان! هز رأسه بقوة. من اليمين ومن اليسار، الأمواج المتكسرة على «ليدو» ترسم خطوطاً بيضاء تحده، كشريط عريض من البياض على خلفية سوداء. رأى السيدة العجوز تتحدث، فرجع ووقف جانبها؛ حتى يسمع ما تقول.

صاحت:

- المياه لا تزال ترتفع. انظر. البرق، يمكن أن ترى البرق وهو ينسف جبال «الألب» ويحوّلها إلى غبار. إنها النهاية يا بُني. كل جزيرة سوف تتلاشى، وكل جبل يختفي.. الملاك الثاني يسكب قارورته في البحر، فينقلب البحر إلى دم الرجال الموتى، وكل كائن حي في البحر يموت(4).

راحت تتحدث وتتحدث، وصوتها يختلط بصوت العاصفة، وهدير الأمواج، يعلو فوقهما، إلى أن وضع «كارلو»، الذي يشعر بالبرد والتعب، والمليء بالشفقة وكرب أسود يشبه تلك الغيوم التي تلهما - ذراعه حول كتفها النحيلتين، وأدارها ونزلا إلى الأرضية، ثم رفع مصباح الشمعة المطفأ، ونزلا إلى غرفتها التي لا تزال مضاعة. بدت الغرف دافئة، وملاذاً. كان بوسعه أن يسمعها لا تزال تتكلم. ولكنه كان يرتجف دون توقف.

قالت في صوت عملي:

- أنت تشعر بالبرد.

سحبت عددًا من الأغطية من فوق الفراش، وقالت:

- إليك هذه.

جلس على مقعد كبير ثقيل، ووضع الأغطية حول ساقيه، وأسند رأسه للخلف؛ كان تعبًا. جلست السيدة العجوز إلى مقعدها، وراحت تلف الخيط في بكرة. بعد بضع دقائق قليلة من الصمت، راحت تتكلم ثانيةً، وراح «كارلو» من جديد يُغيّر جلسته، ويهز رأسه، وهي تتكلم وتتكلم: عن العواصف، وعن الغرق، وعن نهاية العالم، وعن حبها الضائع.

عندما استيقظ صباحًا، لم تكن السيدة العجوز هناك. ظهرت تفاصيل غرفتها في ضوء الصباح الخافت: رثة، وأثاثها بالٍ، والأغطية مُمزّقة، وقطع زينة قبيحة من زجاج «فينيسيا»، كما هو قبيح دائمًا زجاج «فينيسيا».. ولكنها نظيفة. وقف «كارلو»، وراح يشد عضلاته المتيبسة. ذهب إلى السطح، فلم يجدها هناك. كان صباحًا مشمسًا. رأى قاربه ناحية الجدار الشرقي، كان لا يزال هناك يطفو. ابتسم للمرة الأولى من عدة أيام، وكان يشعر بالبسمة على

وجهه.

لم تكن المرأة في الطوابق السفلية أيضًا. كان الطابق السفلي، كما استطاع أن يراه، يُستخدم كمرباً للقارب. كان هناك قاربان متداعيان، وبعض مصائد الكركند. كان موضع القارب الأكبر فارغًا، ربما كانت في الخارج تتفحص شراكها، أو ربما لا ترغب أن تتحدث معه في ضوء النهار. من مرباً القوارب استطاع أن يمشي إلى قاربه، خائضًا في ماء بالكاد يصل إلى ركبتيه، ليجلس في مؤخرة القارب، ويتذكر عصر أمس، ويبتسم ثانيةً؛ إذ إنه لا يزال على قيد الحياة.

حل المرساة، وراح ينزح الماء من القارب مستخدمًا عصا النزح، مراقبًا ما حوله باحثًا عن السيدة العجوز. ثم تذكر خطاف القارب، فصعد إلى أعلى من أجله، وعندما عاد للقارب لم يكن هناك بعد أي إشارة على وجود السيدة العجوز. هز كتفيه، يمكنه أن يأتي وقتًا آخر ليقول لها «وداعًا». راح يجدف حول البرج، مبتعدًا عن «ليدو»، ورفع الشراع، متجهًا إلى الشمال الغربي، حيث يُفترض أن تكون «فينيسيا» هناك.

كانت مياه البحيرة هذا الصباح هادئة كأنها مياه مستنقع، والسماء صافية، كأنها قبة زرقاء في كاتدرائية عظيمة. كان الأمر مدهشًا، ولكن «كارلو» نفسه لم يكن مندهشًا؛ فالطقس يصبح هكذا تلك الأيام. غير أن عاصفة الليلة الماضية كانت شيئًا آخر. لقد كانت «أم العواصف»، والأمواج التي نتجت عنها كانت أكبر أمواج شهدت البحر على الإطلاق وبلا شك. بدأ يتدرب في عقله كيف سيروي حكايته لزوجته وأصدقائه.

راحت «فينيسيا» تبدو في الأفق من ناحية مجدافه الأيمن، في المكان الذي ظن أنها فيه؛ في البداية ظهرت منها الأبراج العظيمة، لكنيسة «سان ماركو» وغيرها. الأبراج.. الحمد لله أن أسلافه أرادوا بنشيتها أن يكونوا قريبين من الرب أو بعيدين عن الماء، تلك الرغبة التي كانت سبباً في نجاته. في الهواء الذي غسلته الأمطار، بدا منظر البحر الذي يقترب من المدينة أكثر جمالاً من ذي قبل، حتى إنه لم يكلف نفسه عناء أن يهتم بمدى قرب البحر من المدينة، كما من عادته أن يفعل، فالمدينة لا تزال تبدو فوق الأفق، كما كانت دائماً. «سيرينيسيا» (5).. كان سعيداً بأنه يراها.

كان جائعاً، ومُتعباً، فراح يُبحر نحو «جراند كنال» مُنزلاً الشراع، شعر أنه بالكاد يستطيع التجديف. كانت مياه أمطار أمس تنسكب من الأرض إلى البحيرة، لتجري في «جراند كنال»، الذي أصبح مثل نهر جبلي عظيم. كان من الصعب الإبحار في القناة. عند محطة الإطفاء، حيث تتحني القناة، كان هناك عدد من أصدقائه يعملون في منزل جديد فوق الأسقف، فلوّحوا له وبدت على وجوههم علامات الدهشة لصديقهم الذي يرونه مبحراً إلى داخل القناة في هذا الوقت المبكر من الصباح، فصاح أحدهم:

- أنت تبخر في الاتجاه الخطأ.

رفع «كارلو» المجداف مُلوّحاً له، ثم أعاد المجداف إلى جانبه، وقال:

- ألا أعرف ذلك؟

عبر «ريالتو»، عائداً نحو الساحة الصغيرة لـ«سان جياكومو». دخل إلى المرسى الذي بناه مع جيرانه.

- «كارلو».

سمع زوجته تتنادي من أعلى:

- «كارلو».. «كارلو».. «كارلو»!

وأسرعت نازلة من السقف على السلم.

وقف على المرسى.. كان في بيته. كانت زوجته تجري فوق المرسى وتتنادي:

- «كارلو».. «كارلو».. «كارلو»!

قال متضرعاً:

- ربّاه!

وضمّها بين ذراعيه بقوة وهو يقول لها:

- اصمتي أرجوك.

راحت تساعده في صعود السلم، وهي تقول:

- أين كنت؟ لقد قلقت عليك بسبب هذه العاصفة. لقد قلت إنك سوف تعود السبت.
«كارلو»، أنا سعيدة أنني قد رأيتك.

كان الطفل بيكي. جلس «كارلو» على مقعد المطبخ، ونظر برضا حوله إلى غرفة المعيشة الصغيرة. بينما كان يمضغ لقيمات من خبز، راح يُخبر «لويزا» مغامرته؛ اليابانيين ونهبهما المدينة، ورحلته المرعبة عبر البحيرة، والمرأة المجنونة في البرج. عندما انتهى من سرد

قصته، والتهم خبزه، بدأ يشعر بالنعاس.

- ولكن يا «كارلو»، يجب أن تعود وتُحضر هذين اليابانيين.

- فليذهبا إلى الجحيم.. الوغدان الضئيلان. إنهما يمزقان «العذراء»، ألم أُخبرك؟ سوف يأخذان كل شيء من «فينيسيا»، حتى آخر لوحة وآخر تمثال، وآخر لوحة محفورة، وآخر سيفسء.. لا يمكنني أن أقف هكذا.

- حسناً «كارلو»، كل شيء سيكون على ما يُرام؛ إنهم يأخذون هذه الأشياء إلى جميع أنحاء العالم، ليضعوها هناك ويقولوا إنها من «فينيسيا»، أعظم مدن العالم.

- يجب أن تبقى هذه الأشياء هنا.

- اهدأ واسترخ وحاول أن تنام بضع ساعات، وأنا سوف أذهب وأرى إذا كان «جيوسبي» سوف يذهب معك إلى «تورتشيللو» لإحضار هذه الكتل.

ثم أردفت، وهي ترتب له الفراش:

- دعهما يأخذان ما هو غارق تحت الماء يا «كارلو».. دعهما يأخذانه.

غرق في النوم. راح ينازع ليستيقظ، وزوجته تهز ذراعيه، وتقول:

- استيقظ، الوقت تأخر. يجب أن تذهب إلى «تورتشيللو»؛ لتحضر هذين الرجلين، وإلى جانب ذلك، هما معهما خزان الغطس خاصتك.

تأوه «كارلو».

- «ماريا» تقول: إن «جيوسبي» سوف يذهب معك، سوف يقابلك بقاربه عند «فوندامنتي».

- تباً!

- «كارلو»، نحن نحتاج إلى هذا المال.

كان الطفل بيكي، فألقى «كارلو» بنفسه فوق الفراش، وهو يقول:

- سوف أفعل.. لا تزعجيني بالأمر.

استيقظ، وشرب الحساء الذي قد أعدته له، ثم نزل السلم متجاهلاً وداع «لويزا» وتحذيراتها، وعاد إلى قاربه. حل القارب ودفعه، وتركه يطفو خارج الساحة في اتجاه جدار «سان جياكومو»، بينما راح يتطلع نحو الجدار. فجأة تذكر؛ فوضع عليه

معدات الغوص، وسبح نحو الكنيسة في الأسفل. جلس على واحد من المقاعد الحجرية الكبيرة أمام المذبح، بعدما عدَّ من حزام الأثقال الذي يرتديه وخزان الهواء، وراح يحاول أن يصلي من خلال مُنظَّم التنفس وقناع الغوص اللذين يضعهما. ارتفعت فقاعات تنفسه الفضية إلى أعلى نحو السماء، لم يدر إن كانت صلواته قد صعدت معها أم لا. بعد قليل، انتابه شعور بحُمق ما يفعل، وإن كان ليس تمامًا، فسبح نحو الباب، فلمح كتابة فتوقف لقراءتها، مضطربًا أن يقترب بقناع وجهه ليصبح على بعد سنتيمترات من الكتابة:

حول هذا المعبد، ليكن قانون التاجر الوزن الصحيح والوفاء بالعقود.

كان هذا بمثابة تحذير لمرتادي الكنيسة من التجار القدامى، ولكنه يمكن أن يعتبره موجّه له أيضًا، كما خطر على عقله، فالوزن الصحيح يمكن أن يشير إلى أحزمة الأثقال المُستخدمة في الغوص؛ حتى لا يثقل زبائنه ويُغرقهم في القاع. مرت الذكرى، وأصبح على سطح الماء من جديد، لديه مهمة ليؤديها. شهق بعمق ثم زفر، ثم تثبت المجاديف في حافة القارب وراح يجدف.

دعهما يأخذان ما هو غارق تحت الماء.. ما عاش في «فينيسيا» لا يزال واقفًا منتصبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الكاتب

«كيم ستانلي روبنسون» Kim Stanley Robinson (1952): أمريكي أكاديمي متخصص في دراسة الأدب، وكاتب وناقد للخيال العلمي. حاز على درجة الدكتوراة في الأدب عن دراسته لأعمال كاتب الخيال العلمي الأمريكي «فيليب ك. ديك». نشر إلى الآن نحو تسع عشرة رواية خيال علمي، والعديد من قصص الخيال العلمي القصيرة. أهم أعماله: «ثلاثية المريخ»، و«ثلاثية مقاطعة أورانج»، و«اللثان تُرجمتا إلى أربع وعشرين لغة. تميزت أعمال أدب الخيال العلمي التي أنتجها بمعالجتها لموضوعات جديّة ومعاصرة، مثل: مشكلات البيئة والثقافة والسياسة، كما تتميز بتقديمها للعالم دائمًا في صورة «البطل». نالت أعماله تقدير النقاد، حيث حصل على جوائز «نيبولا»، و«هوجو» أكثر من مرة. في عام 2015 أطلقت عليه صحيفة «The New Yorker»: «أعظم كاتب خيال علمي على قيد الحياة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



المترجم

وسام الدين محمد عبده: أكاديمي ومترجم وكاتب مستقل. وُلِدَ في الإسكندرية عام 1974. يحمل درجة الدكتوراة في العلوم البيئية، وعمل أستاذًا في جامعات مصرية وعربية. يهتم بالشأن الثقافي العام، وبصورة خاصة الخيال العلمي والتاريخ والفلسفة، له العديد من الدراسات والمقالات الفكرية المنشورة في مجلات ومواقع مختلفة، وشارك في مجموعة قصصية لكتاب الخيال العلمي العرب صدرت باسم: «خيال علمي 1» عن دار «ناشري» الكويتية. من ترجماته: «فرويد: أعماله وحياته» عام 2010. ومن ترجماته مع دار «منشورات ويلز»: رواية: «الطاعون القرمزي» للكاتب الأمريكي «جاك لندن» عام 2012، ورواية: «الشيء القادم من عالم آخر» للكاتب الأمريكي «جون و. كامبل».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



متميزون للكتب النصية



لينك الانضمام الى الجروب - Group Link

لينك القتاة - Link

Notes

[←1]

«بعد أن غرقت فينيسيا» Venice Drowned: نُشِرت للمرة الأولى عدد أغسطس 2017 من مجلة Clarkesworld، المتخصصة في نشر قصص وروايات فازت أو رُشِّحت للفوز بجائزة «هوجو» للخيال العلمي. تُصنَّف كقصة من «أدب الخيال العلمي البيئي»؛ ذلك النوع الذي تخصص فيه «روبينسون».

[←2]

سمكة «السلور»: إحدى أنواع الأسماك التي تعيش في قاع المياه العذبة، وتتغذى على الجيف. تُعرَف في مصر باسم: «القراميط».

[←3]

«ليدو»: شبه برزخ رملي يحد «بحيرة فينيسيا» من الشرق، تشغله ثلاث قرى والعديد من المنشآت السياحية. ويستضيف فعاليات «مهرجان فينيسيا الدولي للفيلم».

[←4]

إشارة إلى الآية الثالثة من الإصحاح السادس عشر في «سيفر يوحنا اللاهوتي».

[←5]

«سيرينيسيماء»: اسم لآتينى أُطلق على مدينة «فينيسيا» فى زمن جمهوريتها، ويعنى حرفياً: «الهائئة».